هكذا علمنا عمر فاخوري

بقلم رئيف خوري

اولئك الادباء العباقرة الذين يشقون دروبا جديدة للفكر، ويشوقون الذوق الى جمال جديد ، ويثيرون مثلا اجتماعية جديدة ، وقيما جديدة ، ويشنون هجوما على الجمود وصور اللامبالاة والاستسلام ، اقول : ان اولئك العباقرة لهم سيرة تمتد بهم في الوجود بعد ان تمحي اشباحهم فاذا هم في فناء الموت احياء يتحركون ويشعون .

يعيش هؤلاء العباقرة في طوق دائم تضربه عليهم الفئات الرجعية ... تبدأ هذه الفئات بان توسعهم افتراء وتشنيعا في حياتهم ، ثم بعد ان ترى ان الجوهر التقدمي الذي جلاه أولئك العباقرة قد أثر أثره بعقول الجماهير وارواحها ، تعدل الفئات الرجعية عن موقفها القديم ، وتجتهد في تبني هؤلاء العباقرة والاستظلال بظلهم ، فتشهد لهم ببعض جوانب من عبقريتهم ، تعترف لهم ، مثلا بروعة العبارة وخصب المخيلة وسمو العاطفة ، لكنها ـ اي الفئات الرجعية اياها ـ تحرص ابدا على ان تحوك مؤامرة صمت مطبق عما جلا اولئك العباقرة من جوهر تقدمي يدمغ الرجعية وجمودها وفظاعتها بدمغة العار والاجرام بحق المجتمع والعدالة والسعادة .

ان من هؤلاء العباقرة اديبنا عمر فاخوري (*)

شد ما تخطيء الفئات الرجعية حين تتوهم انها تستطيع ان تجعل من عمر فاخوري ، وادبه ، ستارا لها . فالنور كشاف ولن يصلح ستارا للحجب والتضليل او غبارا للتعمية والتمويه .

لقد كان عمر فاخوري وسيبقى اديبا للبنان . وكلما تململت اصابع افعوانية ، من تلك التي ترشح سما ، لتعيث بلبنان عن طريق استفزاز التعصب الطائفي ، سيدوي صوت عمر فاخوري صيحة لبنانية عربية انسانية ، تقول قول يقين مقنع ، مشرق اشراق الصباح اللبناني (١) : « كلا نحن لسنا في حاجة الى ما يفرق ويقطع .. بل الى ما يؤلف ويجمع... لا يصح لبنان وطنا لدين من الاديان او لمذهب من المذاهب .. لا يصح لبنان الا وطنا لجميع اللبنانيين على السواء .. سيظل لبنان حيث هو ، وحيث كان من الطبيعة والتاريخ ، همزة وصل بين الشرق والغرب (٢) اللذين يلتقيان فيه . واذا صح ان ثمة مستقبلا قريبا او بعيدا ، ليس يعرف الاثرة القومية ولا ما يلازمها من مظاهر الفتح والطمع والغلبة ، ولا التحريم الفكري وما ينشأ عنه من تعصب على اختلاف انواعه ، فقد كانت اذا ثقافة لبنان هي المثلى ، ورسالته في الدنيا هي الفضلى : ثقافة تمازج ورسالة تواصل ... ولا يعد من قبيل التبجح قولنا الان ان اللبنانيين (وذكر معهم السوريين) سواء في مواطنهم ام في مهاجرهم ، وسواء افي الحقل النظري ام في المضمار العملي ، كانوا الى عهد غير بعيد (٣) طليعة العاملين على صب الحركة الوطنية الاستقلالية في البلاد العربية في بوتقة القومية الصرف التي لا غبار عليها من التفرقة الدينية او الصبغة الاقليمية (٤) !!

وهكذا علمنا عمر فاخوري حب لبنان الحقيقي ، كأصدق ما يكون الحب ، وكاجدى ما يكون الحب .

وفي الان نفسه كان عمر وسيبقى ، اديبا للعروبة في اوطانها . وفي وقت كان يهان فيه العرب، وتزدرى الخدمة الحضارية العظمى التي اداها العرب للمدنية العالمية ، وهم قادرون ان يستأنفوا تأديتها على وجه افضل مع جلاء الحكم الاجنبي عن ارضهم كلها ، ومع استكمال الحرية والاستقلال وفي وقت كان ينحرف بعضهم الى تحميل الشعب العربي تبعة اخفاق تجسد في استشراء السرطان الصهيوني ، وتبعة طعنات متوالية اصيب بها العرب من ايدي الدول الاستعمارية جميعا ، ومن ايدي عبيد الاستعمار وخدامه، انتصبت قامة هذا الجبار الفكري عمر فاخوري ليرسل صيحة مدوية : لقد وهب العرب للدنيا علامتهم ابن خلدون « ذلك الحكيم الانسيكلوبيدي العظيم » ومقدمته « تلك الطرفة الخالدة » ووهبوا للدنيا المعري الشاعر الانساني العبقري ، وعمر بن الخطاب عبقرية الطيبة .. ولقد حمل العرب مشعل الثقافة والمدنية في اوروبة المظلمة ، عصورا »

(*) صادف نيسان الماضي موعد الذكرى الثانية عشرة لوفاة المرحوم عمر فاخوري . والكلمة التي تقرأها مخصوصة بهذه المناسبة الجليلة .

(١) الفقرات التي تلي هي من كلمات عمر فاخوري .

(٢) لم يقم مرة في ذهن عمر فاخوري معنى للغرب يقتصر على الغرب الاوروبي ، او على دوله الاستعمارية . فالغرب في نظره بيئة حضارية فكرية لم يحترم منها عمر سوى الثقافة المحررة المنيرة، ثقافة روسو وبيرون وغوته ورومان رولان ، وغيرهم ممن لا تصلهم صلة بجلادي الشعوب من هتلر الى ايدن الى غايار .

(٣) يلحظ في هذا الاستدراك حرص عمر على الدقة والانصاف .

(٤) في هذا برهان على ان لبنانية عمر كانت عربية ، ولم يكن لها اي معنى اخر .

والتأخر العربي ليس سوى علة طارئة مع الاستعمار، يستطيع ان يزيلها « الشباب المهدي الهادي ، والعنصر التبـــدلي التقدمي في كل عصر ومصر » !

وهكذا علمنا عمر فاخوري حب العروبة التحرريـــة كأصدق ما يكون الحب ، في الان الذي علمنا فيه حب لبنان المتحرر ، مثبتا انهما حبان لا يتناقضان ــ كما يدعي بعض ــ بل بينهما الالفة كلها والتكامل كله .

وعندما سمى عمر فاخوري فكرة « الامبراطورية العربية » « رجاء متضخما » لم يكن يعني قط الوحدة العربية المشتقة من قومية عربية تحررية، أصيلة في التاريخ انطلاقية تطورية في حاضرها ومستقبلها(١)

وكذلك كان عمر فاخوري ، وسيبقى ، اديبا للســيادة الوطنية التامة وللديموقراطية ، والحريات الديموقراطية ، ولحياة وطنية سعيدة تنظم للشعب على خطوط من العدالة الاجتماعية ، والاشتراكية ، بحيث يكفي المواطن حاجاته المعنوية والمادية وينمو ويزدهر ويزداد نضجا ورقيا . فكلما تواقحت اصوات استعمارية تحاول اقناعنا بان مبـــدأ الاستقلال الوطني والسيادة الوطنية قد هرم وشاخ ، وكلما امتدت يد حاكم لخنق الحريات الديمقراطية ، واعجبه ان يمثل دور ديكتاتور جلاد للشعب ، وكلما ارسل الحبل لاهل الثراء يزدادون ثراء ، وللشركات الاجنبية تمعن استثمارا ، انطلق صوت عمر فاخوري مجلجلا يقول : « ان الشعوب ما كان ليصغر حقها في الاستقلال والحياة لمجرد انها صغيرة حجما او قليلة عددا وعدة ! » « والاستقلال وحدة لا تقبل التجزئة . وهو لا يكون استقلالا حتى يمتنع على كل تدخل اجنبي من غير تفريق ولا تمييز ! » اما « الضمـانة الاولـى والاخيرة » لهذا الاستقلال فهي الشعب « الشعب ناعمـا بخيرات بلاده متمتعا بحرياته المدنية والسياسية تمتعـا صحيحا » فاذا افقر الشعب ، وغلت يده الى عنقه ، وحرمت صحافته الحرية ، وكبت مفكروه وابتذل معلموه ، اذا دفع شبابه الى الهجرة ، وفشت البطالة في عمله ، وجاع فلاحوه، وتركت زراعته بورا ، بينما تملأ المدن مظاهر الترف الاحمق وتغص صناديق الشركات وصناديق الحكام ، مما تنزفه من دم هذا الشعب وعرقه ، فأي ضمانة تبقى للاستقلال ، بل للوطن ، بل لشيء يصح ان يسمى وطنا ، ونحن انما « نريد وطنا من لحم ودم ، لا طيف وطن ! »

وهكذا علمنا عمر فاخوري ان نتطلع الى النظام الامثل في الانظمة ، وهو الذي يقوم على السيادة الوطنية والاستقلال الوطني ، وعلى سعادة الشعب ، اي : الحياة التي تجمع بين الديموقراطية والاشتراكية ، ويشرف عليها حكام همهـم اكثر من التشبث بالكراسي

وكذلك كان عمر فاخوري ، وسيبقى ، اديبا للصداقـة الصادقة ، الصحيحة ، بين الشعوب. وفي تعريف هـذه الصداقة يقول عمر : « تلك الصداقة التي نرحب بها ، والتي لا محل لسواها ، لا في عقولنا ولا في قلوبنا ، صداقـة الوطن المستقل لوطن مستقل ، والشعب الحر لشعب حر ، والجماهير العاملة لجماهير عاملة ، ليست صداقة فئة هنالك لفئة هنا ، هي احرى ان تدعى « شركة » ، اي ان تسمى باسمها » وبعبارة اخرى، لا موضع مع هذه الصداقة لمعاهدات تكره عليها الدول القوية الامم المستضعفة وتجرها بذيلهـا الى مهالك الحرب والاعتداء . ومن ثم كافح عمر فاخوري الاستعمار ، وناضل بقلمه ابشع صور الاستعمار الممثلة في النازية والفاشستية ومن هنا عطف على قضايا جميع الشعوب المقاومة للاستعمار ، وصادق الدول الاشتراكيـة وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، وكان في طليعة مـن دعا الى معاملة هذه الدولة الكبرى على اساس الحريـة والمساواة والاحتفاظ بحق النقد .

واخيرا ، كنت أحب ان أعرض شيئا مما علمنا عمـر فاخوري في حقيقة الادب من حيث هو ادب ، لكن حسبي ان اعيد هنا تعريفه المشهور للادب ، وهو انه « ظاهـرة اجتماعية اصلا ووظيفة اجتماعية فعلا . » وعلى هـذا التعريف ، سار عمر بادبه ، وتمرس بتلك القضايا الحياتية التي اوردت فيها زبدة من اقواله الجامعة. وقد يخيل لبعض ان تلك قضايا ليست من هم الاديب ، بل لعلها مـن هـم السياسي . لكن منذ متى قامت القطيعة بين السيـاسة والادب ؟ حق ان السياسيين لا يجوز لهم ان يسـخروا الادباء . غير ان الادب يعتبر فراريا اذا لم يقل كلمته فـي السياسة ، على شرط ان يبقى ادبا ، ولعل عمر فاخوري في عصرنا هو الاديب الاوحد الذي بلغ من اصالته فـي الادب ان جمع في كل موضوع حسه بين عمق الفكرة وجمـال العبارة الفنية . وكان مذهبه في هذا الجمال ان يؤلف بين الدقة والوضوح والقوة والطابع الشخصي المبتكر .

اننا نحيي في هذه الذكرى الثانية عشرة لعمر فاخوري اعظم ادبائنا الاصلاء المحدثين (١)

رئيف خوري

(١) وهذه هي القومية العربية التي تسير اليوم بخطى كبرى في طريق الانتصار النهائي تقوم بها الجمهورية العربية المتحدة .

(١) نيو ــ كلاسيك Neo - Classique

صدر حديثا عن دار بيروت

		ق.ل
١ ــ طريق النجاح ترجمة بهيج شعبان		١٥٠
٢ ــ قصص مختارة من الادب الانكليزي	محمد رشدان	١٠٠
٣ ــ بودلير	الدكتور فؤاد ايوب	٢٥٠
٤ ــ شوبنهور	الدكتور احمد كوى	٢٥٠
٥ ــ خواطر حول الجمهورية العربية المتحدة	بقلم الدكتور جورج حنا	١٥٠